أوروبا المتحررة

كيف كانت وكيف أثّر الإسلام فيها ؟

محمد عبيد

أوروبا المتحررة.. كيف كانت، وكيف أثّر الإسلام فيها ؟

(بحث في التأثير الإسلامي على الغرب)

محمد عبيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إليك أنت أيها العربي المغترب عن آلاء

تاريخه العطر، يا من شغفت حبًا بالنهضة

الأوروبيّة!

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم..

إن من الضرورة الإنسانية التي تقتضيها الحياة لمن كانت همته تغيير المستقبل وتوجيهه إلى الأصلح والأمثل؛ أن يرجع إلى ماضي الإنسان ويتعمّق في أحواله باحثًا ومنقبًا عن عوامل ارتقائه و أسباب انحداره، ليتفادى ما قد يضر بالمستقبل والناس.

إن هذا المُنصف الموضوعي الذي نظر إلى الماضي ليُشرق به المستقبل ليأبى أن يسير خلف مستبدي الحضارات ومغتصبي الأفكار؛ بل يصر في استعلاء إلا أن ينطق بالحقيقة الواقعة التي قررها التاريخ البشري بإنصاف ومصداقية.

إذا كان هذا هو واجب أي باحث عمومًا ؛ فإنه في حق المسلم خصوصًا أوجب حتى أن الإسلام قد حثّ عليه للعبرة والاعتبار فقال: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"

هذا السير الفكري والعلمي بالبحث والمعرفة الصحيحة هو سبيل الارتقاء بالشعوب والمجتمعات، ولذلك فإن التاريخ ليأبى في عناد كبير إلا أن يسجل ما أحرزه المسلمون في حياتهم وما قدموه للإنسانية ، هذا التاريخ يأبى أن يستحقر ماضي المسلمين وتأثيرهم الإيجابي على غيرهم من باقي شعوب الأرض في شتى فنون المعرفة ومجالات الحياة.

ولهذا فإن تاريخ المسلمين حافل بالعطاء والازدهار عندما حكموا باسم الإسلام، وقد كان تأثيره كبيرًا إلى حد أنه جعل من ظلام الأرض نورًا مشرقًا تهتدي به حيارى المجتمعات.. وقد كانت لأوروبا نصيب وافر من هذا التأثر الإسلامي النافذ بعمقه إلى مشارق الأرض ومغاربها.

ومع أن هذه حقيقة تاريخية إلا أن هناك من يُحاول في استكبار أن ينكرها وأن ينسب إلى لنفسه الإبداع الخالص في هذه الحياة، ومن واجبنا كمسلمين أن نبيّن ما يزوره هؤلاء الناس وأن نعلن للعالم كله المنبهر بحضارة أوروبا الراقية ما قدمه الإسلام والمسلمون للحياة وللإنسان .

محمد عبيد

على الرغم من تمدن الحضارة الأوروبية حديثًا وتطورها الباهر في شتى المجالات والفنون؛ إلا أن هذا الرُقي الظاهر ليس من اختراع العقل الأوروبي ، كما أن الغرب ليس هو الذي ابتدع وابتكر الازدهار الإنساني العام في هذه الحياة.

ولأجل هذا، ومن أجل ألا يُقال: إن الغرب صاحب فضل على الإنسانيّة جمعاء بعقليته وجهوده المبهرة.

فإننا نقف هنا موضحين إسهامات المسلمون العرب في قيام هذه الحضارة وفي صناعة هذا الرُقي والتمدن، ومنهجا في بحثنا هذا هو منهج موضوعي مُنصف كما كان مذهب كبار المستشرقين الغربيين المُنصفين أمثال "مونتجمري وات" و "غوستاف لوبون" و "زيغريد هونكه" وغيرهم من العلماء الأفاضل الذين أعطوا كل ذي حق حقه، ونسبوا لكل مالك فكره وآراءه واجتهاداته وعطاياه في هذه الحياة.

كانت أوروبا صاحبة الرفاهية والتقدم حديثًا تعج بالفوضى والفساد والانحلال في عصور ظلامها الوسطى (من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الميلادي)، كل هذا الفساد والتخلف كان بسبب رجال

الدين الذين تحكّموا في الحياة فأفسدوها بأفكارهم البائسة ومنهجهم الغير الصالح، حتى كانت الكنيسة الغربية صاحبة السوط الكبير الذي لطالما رُفع على العلماء والمُبدعين وأصحاب الآراء المخالفة للكنيسة من قبل رجال الدين المتعصبون.

وتتمثل مظاهر سيطرة الكنيسة على التعليم في عصور ظلامها الوسطى في الأتي:

١. احتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس

٢. من لا يخضع للكنيسة فهو ملعون

٣. فرضت الكنيسة سيطرتها على الجامعات الأوروبية، لكي لا يخرج فكر ينتقدها ويقف أمامها، وبذلك استبدت الأفكار والمؤسسات.

محاكم التفتيش

وقفت الكنيسة بالمرصاد لكل فكر مخالف لها واضطهدت المخالفين وقمعتهم ونكلت بهم أشد أنواع التنكيل ، وأقامت محاكم التفتيش التي بها

كل أساليب القهر والتعذيب ، وكانت هذه المحاكم تطارد المخالفين إلى حد إحراقهم أحياء.

فعندما سقطت غرناطة في أسبانيا سنة ٨٩٧هـ ، وسقطت الخلافة الإسلامية في الأندلس. وفي هذه الفترة قامت "محاكم التفتيش" التي ارتكبت أعمالًا وحشية لتطهير اسبانيا من المسلمين وآثارهم ، وإبادة تراثهم الذي ازدهر طوال ثمانية قرون من الزمان.

وهاجر كثير من مسلمي الأندلس بعد سقوط دولة المسلمين؛ فرارًا من اضطهاد النصارى، وعادت اسبانيا إلى دينها المسيحي القديم، أما ما بقى من المسلمين هناك فقد أجبر على التنصير أو الرحيل.

وأحرقت جميع الكتب الإسلاميّة في الدين والشريعة من قبل النصارى آنذاك. وقد مورست تجاه المسلمين الباقين في تلك الفترة في أسبانيا أشد أنواع التعذيب، وكان المسلمين الذين بقوا هنالك قد أجبروا بالقوة على اعتناق النصرانية؛ لكن بالرغم من دخولهم النصرانية إلا أنهم كانوا

يتعلقون بالإسلام سرًا، وكثيرًا منهم يؤدي شعائره خفية خوفًا من تنكيل الكنيسة ورجال الدين النصراني إن علموا ببقائه على دينه.

وقد حارب النصارى اللغة العربية وفرضوا على من يعيش في الأندلس عدم التحدث بها، وتم حظرها هناك.

واستمرت "محاكم التفتيش" في محاربة هؤلاء المسلمين طوال قرن من الزمان، مما يدل على آثار الإسلام الراسخة في نفوس الناس رغم المحن والاضطهاد، وكان رجلًا من الأسبان يدعي "بدية" توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج بعد ما يزيد على ٣٠٠ عام من قيام "محاكم التفتيش" .

وفي هذه الفترة (التي كانت فيها محاكم التفتيش) كان المتهم يمثل أمام المحكمة لإخضاعه للاختبار ، وكان هذا الاختبار عبارة عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير للتأكد أنه غير متمسك بالإسلام.

وهذا الامتحان لم يكن الأخير ؛ بل كان يحبس بعدها في الزنزانة في سجن سري دون أن يعرف التهمة الموجهة إليه.. وكانت هذه الزنزانة مكان من أسوء الأماكن على الإطلاق، فقد كانت مظلمة ومليئة

بالأفاعي والحشرات.. وكان المتهم يبقى في هذا المكان أشهر طويلة فإن مات فتعتبر المحكمة أن الله رحمه ، وإن عاش فما عليه إلا أنه يقاوم الموت!

وكانوا يجبرون المتهم على الاعتراف، فإن اعترف أو لم يعترف لا بد وأن يتعرض للتعذيب!

ويشتمل التعذيب على كل ما يخطر بالبال من أساليب وما لا يخطر، منها على سبيل أنها تبدأ بمنع الطعام والشراب ثم الجلد ونزع الأظافر والكي بالحديد المحمي ونزع الشعر والتعليق من الأصابع والإخصاء.. وكانوا يتعرضون للحرق وكان هذا الحرق جماعي.

وقد كانت محاربة "الهرطقة" – التي تُعد الانحراف ؛ولو البسيط، عن العقائد المسيحية- في جميع أنحاء العالم المسيحي بكل وسائل التعذيب والتنكيل.

لماذا تعصبت الكنيسة ضد المخالفين؟

لأن بنية العقائد المسيحية قد أُخذت من فلسفات وثنية متعارضة وكان هذا سببا في تعقيدها وتناقضها. وبالاعتقاد الحتمي الذي لا يقبل المناقشة

والجدل سار رجال الدين المسيحي يؤمنون بعقائد لا تقبل الفهم، كما وقر في نفوسهم أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم!

مراحل محاولات تحرر العقل الأوروبي من قيود الكنيسة في عصر النهضة

بعدما أيقن العقل الأوروبي بمآل حالته المزرية بدأ يثور على الوضع في أوروبا في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر الميلادي، وسميت هذه الفترة بعصر النهضة الأوروبي، حتى القرن السابع عشر الميلادي الذي كان بداية للعصور الأوروبية الحديثة، وتمثلت هذه الثورة في مرحلتين كبيرتين:

المرحلة الأولى/ نقد رجال الكنيسة وإظهار مساوئهم وعيوبهم، وعدم الاقتناع برجال الكنيسة.

المرحلة الثانية/ نقد الدين المسيحي نفسه، وتعظيم شأن العلم، وإنشاء الجمعيات العلمية المستقلة عن رجال الدين المسيحي ، وتشجيع البحث العلمي القائم على المناهج التجريبية.

وإذا أردنا أن نقارن بين هاتين الفترتين في عصور أوروبا الوسطى (فترة عصر- النهضة ، وما قبل عصر- النهضة) نلمح في الجمهور المسيحي السمات الأتية:

في العصور الوسطى ما قبل عصر النهضة	في عصر النهضة
الخضوع الكامل للكنيسة واتباعها في كل شيء	الثقة بالعقل ورد القيم له والبعد عن الدين
تحقير الإنسان واعتباره خطيئة في هذه الحياة	إحياء الروح القديم (المذهب الإنساني)
الحط من شأن العقل والفكر	تعلم اللغة اليونانية والفلسفة المستقلة عن الدين
هناك أسرار لا يستطيع العقل إدراكها	سيادة التوعية الفردية واحتكار العقل الجمعي
	معاداة الفلسفة للدين ونبذه ونقضه
	ظهور المنهج التجريبي عند روجر بيكون والذي استمده من المسلمين
	الكشوف الجغرافية أثبتت كذب الكنيسة

	المغالاة في الفنون الطبيعية
	تقدم الصناعة
	تقدم التجارة

أسباب نقد الكنيسة في العصور الوسطى

١. تدهور الأخلاق وانتشار الفساد والانحطاط في الكنيسة، ومن مظاهر هذا الانحلال والانحطاط أن غالبية رجال الدين المسيحي كانوا مدمني الخمر، ويرتكبون الزنا، ولديهم المال الكثير، ويسعون وراء المتع ويهملون أعمالهم، وكانوا يشترون المناصب بالمال.. وقد وصلت حالة البابوية في القرنين العاشر والحادي عشر إلى أحط دركات الانحطاط.

٢. فرض الضرائب على رعايا الكنيسة، وجمع الأموال بالطرق الغير مشروعة، فقد استولت الكنيسة في فرنسا وألمانيا على ما يتراوح بين

ثلث ونصف أملاك الدولة، كما أنشئوا ما يسمى بـ "صكوك الغفران" وهو مبلغ يدفع للكنيسة مقابل "صك" يصدر عن الله ــ بحد زعمهم ــ يعطيه القس للمذنب مقابل المال وبالتالي فقد حصل المذنب على المغفرة وكذلك على موضع في الجنة!

٣. مخالفة العقيدة المسيحية للعقل. ويتمثل هذا التضاد مع العقل والفكر الإنساني في أسرار الكنيسة التي تمثل حجرًا على العقل والفكر من النقاش والفهم لها، وها هي مع ما يعتمدون عليه من كتابهم المقدس في تشريع هذه الأسرار:

- سر المعمودية: يولد الانسان ولادة ثانية من فوق بالماء والروح "من أمن واعتمد خلص" (مر١٦: ١٦).

- سر الميرون: تنال به سُكن الروح القدس. ومنح الروح القدس لازم للجميع.

- سر الافخارستيا: به يأكل المؤمن جسد الرب ودمه (يو٦: ٥٣).

- سر التوبة والاعتراف: به ينال الخاطئ التائب الغفران ولازم للكل فليس أحد بلا خطية.

- سر مسحة المرضى: لينال المريض الشفاء

- سر الكهنوت: ينال الخادم سلطان ممارسة الاسرار.

- سر الزيجة: يتحد الرجل والمرآة اتحاداً مقدساً.

وإذا جئنا إلى سر من هذه الأسرار وتأملنا فيه ندرك ببداهة كم الفساد الديني الذي وقع فيه هؤلاء القساوسة ورجال الدين، ففي المسيحية، أو بالأحرى في الكنيسة، قد عرف الغفران للذنوب باسم آخر غير المتعارف عليه بين المؤمنون، حتى غدا في عقيدة الكنيسة "سر" من أسرارها التي لا يمكن للعقل أن يدرك حقيقته أو يفهم مخزاه!

هذا السر الذي هو أحد أسرار الكنيسة السبعة، يعرف بـ (الغفران أو التوبة أو الاعتراف) ، ويأتي المُذنب من أتباع الكنيسة إلى القس الذي يكون بيده تطهير العاصي من خطاياه، وهذا القس يعتبر نفسه وكيلًا عن الله في توزيع الجنة والنار فإذا جاء المذنب واعترف أمام القس بذنوبه واشترى منه الغفران، والغفران عبارة عن "صك" يصدر عن

الله عز وجل في زعمهم ولكنه بيد القس، يُعطيه المذنب مقابل مبلغ من المال.. وبالتالي فقد حصل المذنب على المغفرة وكذلك قد حصل على موضع في الجنة!

لكن هل هذه تعاليم دين الله عز وجل؟ هل هي تعاليم المسيح فعلًا لأتباعه ؟

إن المسيح نفسه عندما قال لأحدهم: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». (متى ٢/٩) ، لم يكن يقصد أنه أساس الشفاء، المسيح عليه السلام قال هذا بعدما رأى إيمانه، فإيمانه هو من غفر له كما هو الحال مع المرأة التي قال لها المسيح في متى ٢٢/٩: ثِقِي يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ.

فكل من يؤمن بالرسول ومن أرسله يُغفر له خطاياه؛ فهذا وعد الله لمن آمن وصدّق.

ثم إن شفاء المرأة من المعجزات التي أيده الله بها، والمسيح لا يستطيعها وحده كما قال: أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي. إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا. (يوحنا ٣٠/٥).

فكيف يترفع سيدنا المسيح عن هذه الخصوصية الإلهية، ولا يترفع أتباعه من القساوسة ؟!

وليست الأسرار وحدها هي دافع الرفض؛ بل هناك عقائد كنسية أصيلة كانت بمثابة الدافع الأول لرفضها زمنها: مسألة الصلب والفداء، والتثليث.

٤. عدم تقبل آراء المخالفين لرجال الكنيسة وتعصبهم. اعتبرت الكنيسة "علم الكيمياء" فنًا شيطانيًا خبيثًا، وقد أدان البابا المشتغلين بها عام١٣١٧م ، وقد سجن روجر بيكون ١٢٩٢م ، لمجرد نزوعه للبحث العلمي.

وما حدث لجاليليو الفلكي الذي خالفت آراءه النظرية الكنسية المقررة بأن الأرض هي مركز الكون وكل الكواكب والنجوم تدور حولها، لقد حبس في بيته حتى موته لأنه خالف الكنيسة في رأيها!

٥. فرض الضرائب ، وثراء رجال الدين. يقول جون لوريمر في تاريخ الكنيسة جـ٤: "هناك اتهامات كثيرة ضد البابوية ، ولكن التهمة الأكثر انتشاراً كانت الإستغلال المالي، ضج الناس بالشكوى من أعلى حاكم إلى أدنى قروي بأن الكنيسة عاشت للمال. ومن داخل الكنيسة ضغط البابا على الأساقفة الذين عَصروا الكهنة الذين هم بدورهم عَصروا الشعب.

يبدو أنهم في كل يوم اخترعوا طرقاً جديدة لتنمية دخول الكنيسة. فقد كان هناك محصلون خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف. كانوا يطالبون بعشر دخل الكاهن ، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السنة الأولى من خدمته وبالطبع كانت المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع المبلغ الأكبر. الضرائب كانت تفرض سنوياً على الملوك وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد، حينئذ تفرض لذلك ضريبة إضافية. يقدرون أن الكنيسة في أسبانيا وفرنسا استولت على ما يتراوح بين ثلث إلى نصف أملاك الدولة. وفي إنجلترا تلقت الكنيسة وصرفت حوالي ٢٥% من الدخل القومي.

في هذه الفترة من التاريخ لم يعد الناس يفكرون في الكنيسة على أنها مؤسسة للخدمة أو الإلهام لكن بالأحرى كملكية خاصة بكبار رجال الإكليروس، أوجدت لهم امتيازات ومكاسب اقتصادية" .

من الحركات التي نقدت الكنيسة

١. حركة الكاثاريون cathares : وهي أول حركة ضد الكنيسة، وقد نادت هذه الحركة بالعودة إلى العقائد المسيحية الأولى التي ترك عليها المسيح أتباعه .

لكن قد دخل هذه الحركة بعض الأفكار "المانوية" حتى ارتدوا الثياب السوداء وسموا أنفسهم بالكمّل ، وكانوا يقسمون على الزهد في الآباء الأولاد والزوجات وأن يهبوا أنفسهم للإنجيل، ولهذا سموا بـ "الكاثاريون" أي الأطهار.

كان تعارض الكاثاريون للكنيسة بسبب سلوك رجال الدين والعقائد الكنسية المخالفة للعقل كالعشاء الرباني والقداس والتثليث، واعتقدوا أن المسيح ليس ابن الله.

وقد تم تجنيد جيش مؤلف من نصف مليون رجل لقتال الكثاريين !

٢. حركة الولدانيون vaudois : وتنسب لمؤسسها بطرس والدوا ، وقد وقفت الكنيسة أمامها أيضًا بالتنكيل والقمع حتى أحرقت الآلاف من أتباع بطرس والدوا .

ومن أوئل من نادوا بتحرير العقل آنذاك هم : أنسلم، البرتس، توماس، وأشهرهم بطرس أبيلارد .

وألف أبيلارد كتاب بعنوان "التوحيد والتثليث" أنتصر فيه لعقيدة التوحيد ، كما رفض أن يكون في الدين أسرار.. وقد سجن ابيلارد حتى مات!

أسباب الصراع بين العقل والدين المسيحي في القرن الثاني عشر

١. تحريف الدين المسيحي واحتواءه على تناقضات لا يفهمها العقل

٢. اعتقاد الثائرون بأن الدين المنزل من الله لا يختلف ولا يتناقض مع العقول بل يتوائم معها.

وقد يقول قائل: إن الأديان كلها بما فيها الإسلام لا تخلوا من مغيبات وحقائق لا يستطيع العقل إدراكها؟

ويمكن الرد على هذا بأن هناك فرق بين ما لا يستطيع العقل الحكم عليه كالتثليث، وبين عدم الإدراك في أشياء وهذا ما في الإسلام كعدم إدراك الذات الخالقة "الله".

٣. هيمنة وسيطرت رجال الكنيسة على مقاليد الأمور، وتعصبهم وعدم مسامحتهم للمخالفين لهم في الرأي، بل كانوا يقتلون ويلعنون من خالفهم.

٤. استبداد الكنيسة بفهم الكتاب المقدس، فقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتاب المقدس، واستبدت بتفسيرها باقي الناس وكل من عارضها في كلمة كان له الويل الشديد، ولذلك وقف "برنارد" موقف العداء من "أبيلارد" الذي نادى بأنه لا أسرار في الدين.

وبناءً على هذه الثورة في عصر النهضة الأوروبي كانت النتائج سلبية بشكل كبير فبينما تحرر الفكر الأوروبي من سيطرة الكنيسة إلا أنه قد توجه إلى التفكير حول الثورة على الدين نفسه، وكان من نتائج هذه الثورة واعتناق المذهب الفردي المستقل في كل شيء ظهور الانحراف الأخلاقي بشكل كبير ، وقد تم الخوض في الميادين العلمية التي حظرتها الكنيسة على الناس محاولين لإقصاء أي فكرة تخدم إلى الدين أو حتى تشير إليه!

الإصلاح الديني (البروتستانتي)

هبَّ جماعة من المسيحيين للخروج على الكنيسة الكاثوليكية ، والتنديد بعيوبها ، والتشهير بممارساتها، ومهد الطريق لهذه الحركة الإصلاحية (البروتستانت) وجود حركات أخرى نقديّة قبلها تجاه الكنيسة.

وقد قامت نتيجة لتدهور رجال الدين وفسادهم، ولما يوجد في المسيحية من عقائد يأباها العقل كالعشاء الرباني وصكوك الغفران وغيرهما.

وكان من أبرز قادة الإصلاح البروتستانتي "مارتن لوثر" و "أولريخ زوينجلي" و "جون كالفن" .

لكن لم تكن هذه الحركة الإصلاحية معالجة للأسباب الحقيقية المتمثلة في العقائد المسيحية التي هي مثار النقد الأساسي مثل عقيدة التثليث والتجسيد والخلاص..

فكانت هذه الحركة الإصلاحية بمثابة إصلاح للكنيسة لا إصلاحا للمسيحية!

ثورة العقل الأوروبي على الدين المسيحي

بعد أن ثارت الحركات على الكنيسة، قامت الثورة على الدين المسيحي نفسه، مما أدى إلى وجود الإلحاد والعلمانية، وهذه الثورة تتمثل في صورتين هما:

١. بدأ العقل الأوروبي ينبذ الكنيسة والدين ورأوا أن الكنيسة تقف عائق أمام العلم وسدًا أمام الفكر والعقل!

٢. بناء على الخضوع الموجود للكنيسة ، قامت الثورة بنبذ الدين حتى ترتب على ذلك عدة نتائج وهي:

١. تحرر الفكر الأوروبي من سيادة الكنيسة

٢. كان السؤال المطروح حول الثورة على الدين وليس على الكنيسة

٣. الانحلال الأخلاقي

وبهذا كانت هذه الثورة خروجًا على القيم الإنسانية كلها وليس الدين المسيحي فقط!

نشأة العلمانيّة

ولجمود رجال الدين الكنسي وما كان بهم من فساد وانحلال.. ظهرت العلمانيّة لأول مرة، ونشأة نتيجة لهذه الظروف التي مرت بها أوروبا في عصور ظلامها، وأتبعها بعد ذلك ظهور الإلحاد في ثوب التحرر والحرية!

وهذه التيارات الهدامة تهدف إلى صرف الناس عن الدين والتوجه إلى الدنيا وحدها، والاهتمام بها.

لكن هذه المذاهب الهدامة حديثًا لا تصلح للمجتمعات العربيّة المسلمة، وذلك لأسباب، منها:

١. في الإسلام لا يوجد عقائد تناقض العلم ، ولا يوجد كهانة، ولا يوجد فيه جمود واحتكار..

٢. في الإسلام حث على أعلى مكارم الأخلاق حتى لقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم الغرض العام من مبعثِه فقال: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق" .

بل جعل من حسن الخُلق طريقًا موصل لحب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا".

كما يوجد حث على العلم والتعلم والتفوق، وأكد الإسلام على أن التخلف جريمة، ولذلك كان الرُقي واجب ديني إسلامي ، ولا يوجد في الإسلام ما يناقض أو يخالف العقل..

ونبي الإسلام كان نبيًا وحاكمًا ورئيس للدولة وقاضيًا.. فالإسلام بطبيعته شامل كامل جاء للحياة كلها بجميع جوانبها.

فالأسباب التي قامت عليه العلمانية ونشأة كانت أسبابًا أوروبيّة خالصة، فلماذا نقيس الإسلام وعقائده على عقيدة قد حرفتها الكنيسة ورجالها ؟!

حرص المستشرقين على علمنة الدولة

يظهر هذا الحرص جليًا من خلال أفكارهم وكتبهم، ففي كتاب "إلى أين يتجه الإسلام" الذي حرره "هاملتون جيب" نجد هذه الأفكار ظاهرة جلية، حيث يقرر أن الإسلام حضارة كاملة وليس مجموعة أحكام جزئية..

كما قرر أيضًا أن تأثير الحضارة الغربيّة أصبح قويًا على واقع المسلمين حيث تفتتت الوحدة الفكرية بين المسلمين، وهذا التأثير لا بد له من إعلام وصحافة وهيئات تُعلم وتنشر الأفكار التي تؤثر في نفوس المسلمين، كما أنه لا نكتفي بالمظاهر والأشكال بل لا بد من التطرق إلى الأفكار، وكذلك السيطرة على الحياة الإجتماعية، والمؤسسات الموجهة للناس والسيطرة على انتشار اللغة العربيّة والحد منها، والعمل على نفوذ الثقافة الغربية واللغة الغربية في العالم الإسلامي.

هذه هي الحريّة التي يسعى لها الغربيين حديثًا؛ حريّة السيطرة على المسلمين!

لقد كان ولا زال المستشرقون في كامل اهتمامهم بإنشاء حركة إصلاح في الإسلام وتشجيعها على غرار حركة الإصلاح البروتستانتي ، وذلك من خلال الأتي:

١. أنه لا يجب على المسلمين أن ينظروا إلى كتاب الله على أنه كلامه حرفيًا.

٢. أن ما لا ينسب إلى الله حرفيًا في القرآن، نحن مخيرون في قبوله ورده، كما هو الحال في الأحاديث النبوية حاليًا.

٣. لا بد وأن تقوم حركة تهتم بنقد القرآن الكريم وتشكيك المسلمين فيه.

٤. كل ما تعارض مع الحضارة الغربيّة نحذفه من الإسلام.

٥. النظر إلى الإسلام على أنه دين ولا دخل له بالدولة.

والمشكلة الأساسية التي يرونها عائق أمام مدهم الأوروبي الحديث هي أن الإسلام دين له تأثير على أتباعه.

الآن نتساءل: كيف أثّر الإسلام على الغرب لكي يندفعوا نحو محاربته الشديدة هكذا ؟

يمكننا أن نتساءل : ما الذي دفع الغرب قديمًا لدراسة الإسلام ؟

يُجيب التاريخ على هذا التساؤل بأن:

١. انتصارات المسلمين الكبيرة، وعدم اقتصار النفوذ الإسلامي على الفتح بالقوة العسكري

٢. بروز الإسلام كقوة دينية فكريّة ثقافية كبيرة (الدين الشامل لجميع نواحي الحياة) .

هذين السببين مثلا تحدي كبير للغرب ، فانتصارات المسلمين قديمًا دفعتهم لدراسة الإسلام للتعرف على سر قوة المسلمين ، ولم تقتصر سيطرة المسلمين على الفتح ؛ بل أثّر المسلمون في المجتمع بلغتهم وصارت هي لغة الثقافة والفكر والحضارة دون إكراه أو اضطهاد، حتى أن "الفارو" أسقف قرطبة اشتكى من كون الشباب المسيحي يأخذون من الأدب العربي أكثر مما يأخذون من اللاتينية ، ويقرؤون الأشعار والحكايات العربية، ويدرسون مؤلفات العرب.

- وكان للمسيحيين الشرقيين دور مهم في التعريف على الإسلام، فأول وسيلة وأخطرها كانت بيد "يوحنا الدمشقي"

فمن هو يوحنا؟

إنه منصور ابن سرجون، من دمشق، وكان والده يعمل في قصر الخليفة؛ وكذلك كان جده رئيسًا لديوان المالية. وشغل يوحنا الوظيفة نفسها وكان صديقًا مقربًا للخليفة هشام ابن عبد الملك.. لكنه ترك المهنة وأصبح راهبًا في فلسطين، وسمى نفسه يوحنا الدمشقي.

ألف يوحنا كتابًا سماه "هرطقة الاسماعيليين" وكان يشارك في مناظرات كانت تجري في قصر الخليفة ، وكان يعرف القرآن بشكل معهود، وقد زعم أن في القرآن آثار مسيحية ، وقد كان معظمًا ومقدسًا عند الكنيسة حتى أطلق عليه "يوحنا ينبوع الذهب" !

ومن أفكاره أنه قال: إن محمد تعلم الرهب من بحيرا ، وتلقى القرآن وهو نائم..

ولم يثبت أن كلمة واحدة نزلت على النبي محمد وهو نائم!

ثم يقول: إن محمد ألف كتب منها (كتاب المرأة والناقة)، وأخذ يعدد سور القرآن.

وسمى كل سورة كتابًا، وهذا جهل منه بالقرآن لأنه لا يوجد سورة اسمها الناقة أو المرأة ، كما ادعى أن محمد وقع في نفسه صنع دين جديد!

ويرد على هذا الكذب "طومس كارليل" فيقول: حب أن يؤلف دينًا في حضرة قافلة في جلسة خاطفة.. لا يقول بهذا عقل!"

والبطريك المسيحي "جورج خضر: ألقى محاضرة في مصر قال فيها: إن يوحنا لم يكن مؤهلًا للكتابة عن الإسلام".

- البيزنطيون كانوا أداة التشويه الرئيسية التي تعرف الغربيين على الإسلام، وقد ألف أحدهم كتاب سماه "حياة النبي" هذا الكتاب مليء بالأكاذيب والأباطيل.

- لعبت الثقافة "العربية الإسلامية" في الأندلس وصقلية دورًا مهمًا في تعريف الغربيين بالإسلام، وذلك لاستقرارها قرون عديدة في أوروبا حتى تغلغلت جذورها هناك .

- صقليّة كان لها دور كبير في التعريف بالإسلام ، فكانت الثقافة العربية مزدهرة، ووضع على النقود عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ، وكان حاكمها يرتدي ثياب المسلمين، وجعلت العربية لغة الثقافة، ويقول أحد المستشرقين "إن ملوك صقلية كانوا عربًا في ثقافتهم".

التأثير الإسلامي على الغرب من خلال المستشرق الغربي مونتجمري وات

"إننا -معشر الأوروبيين- نأبى في عناد أن نُقِرَّ بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانًا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحيانًا تجاهلاً تامًّا، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافًا كاملاً بهذا الفضل، أمَّا إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف."

مونتجمري وات

في كتاب "فضل الإسلام على الحضارة الغربية" اعترف المستشرق الغربي "مونتجموري وات" بتأثير المسلمين على الأوروبيين في مجالات كثيرة، وكان ذلك من خلال الأتي:

١. التجارة والملاحة البحريّة. فقد جلب العرب بخبرتهم السفن وقاموا بتجهيزها.

وهيمنوا على التجارة، واخترعوا السفينة ذات الشراع؛ وتميزت هذه السفينة عن غيرها من السفن بقدرتها على الإبحار عكس اتجاه الرياح، كما اخترع العرب البوصلة وتم بعدها إدخال تحسينات عليها.

كما وضع العرب الخرائط البحريّة التي كانت عدة مهمة للملاحين.. إن العرب في هذا المجال كانوا أصحاب الفضل في اتساع معارف الأوروبيين الجغرافية.

٢. المحاصيل الزراعية والمعادن. لم يكتفي العرب في أسبانيا بالزراعات القديمة؛ بل أدخلوا زراعات جديدة، وفي مجال الزراعة كانت للمفردات العربية تأثير على المفردات الغربية، ومن تلك المفردات أو الكلمات: (الساقية ، القنطرة).

٣. فنون الحياة الرغدة. في أسبانيا الإسلامية نشأت صناعة المنسوجات الفخمة، وما زالت أسبانيا محتفظة على تلك المنسوجات الفخمة، وصناعة الخزف ، والكريستال، وقام عمال العرب المسلمين المهرة بصناعة الأدوات الدقيقة من الحديد، وأظهروا فن تجليد الكتب،

والصناعات المزركشة، وبعض المصطلحات التي دخلت اللغة الأوروبية كـ(العريف، القبة، الضبة) كانت مصطلحات عربية خالصة.

ومع أن زيغريد هونكه قد وصفت العرب المسلمون بأبناء الصحراء إلا أنها لم تجانب الإنصاف في حق المسلمين العرب إذ تقول "إن هذه القفزة السريعة المدهشة التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من اللاشيء، لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني، وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة في هذا العصر لفريدة من نوعها، تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها".

وقد استجلب من الشرق صناع عرب للعمل في أسبانيا. والموسيقي "زرياب" الذي أقام في قرطبة من عام ٨٢٢ حتى وفاته سنة ٨٥٧، وقد كان في شبابه يغني ويعزف في بغداد لهارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩) وبعد أن قر عزمه على الرحيل من بغداد أغراه بالقدوم إلى قرطبة حكام الدولة الأموية بالأندلس الذين أغدقوا عليه هداياهم الفاخرة، ولم يقتصر دور "زرياب" على رفع مستوى العزف والغناء ، وإنما أضحى كذلك حكمًا في مجال الأزياء والذوق، وكان يُعد مأكولات

مختلفة ، وقد ابتدع تغيير الملابس في كل فصل من فصول السنة، وبعض الآلات كـ (العود، الرباب، الجيتار) أنشأها العرب وأخذها عنهم الأوروبيين.

واهتم العرب بالكتب والورق اهتمامًا بليغًا، وأسس "يحي البرمكي" وزير هارون الرشيد أول مصنع ورق بعد الصين في بغداد. وقد استخدم روجر الثاني ملك صقلية الورق في كتابة وثيقة له وكان ذلك بعد ما صنع المسلمون الورق بما يقارب أربع قرون، ولم تؤسس مصانع الورق في إيطاليا وألمانيا حتى القرن الرابع عشر، وهذا ما امتدحت به زيغرند هونكه في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب: " لقد فتحت صناعة العرب للورق افاقا جديدة لم يعد فيها الورق مختصا بطبقة معينه بل غدا مشاعا ودعوه للعقول أن تعمل وتفكر" . وكان للإرادة المحلية والنشاط التجاري صدى لكلماتهم على اللغة الأسبانية مثل (العمدة، الديوان، المخزن) .

٤. إنجازات العرب في ميادين العلم والفلسفة. كان هناك تحيّز ضد العرب من بعض الباحثين الأوروبيين مثل: كارادوفو، الذي قلل من الجهود العربية والإسلامية في الارتقاء المعرفي آنذاك.

لكن العرب قد حققوا انجازات في مجال الهندسة والجبر والحسابات.

٥. في مجال الرياضة والفلك. أعتبر "الخوارزمي" العالم المسلم منبع في علم الرياضة والفلك؛ حيث أن أحد كتبه يعتبر أساس علم الجبر، واخترع بيان الجذر التربيعي.

أما في مجال الفلك فقد اشتهر "جابر بن الأفلح" ، و"البطروجي" ، وكان هناك عام يهودي قام بترجمة الكتب العربية إلى العبرية، ولعب هذا دورًا مهمًا في نقل التراث الإسلامي إلى الغرب وتعرفهم عليه.

يقول غوستاف لوبون في حضارة العرب: "ولم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم؛ فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، فهما مدينان لهم في تمدنهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم؛ فهم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة، وفتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية، فكانوا مُمدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون، فقد ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية

مصدرا وحيدا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون. فعلى العالم أن يعترف للعرب والمسلمين بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة"

٦. الطب. قام المسلمون ببناء المستشفيات، وكان أبو بكر الرازي ممن له كتب عظيمة في مجال الطب ، وأعظمها كتابه "الحاوي" الذي كان بمثابة الموسوعة للمعارف الطبية .

وابن سينا له كتاب اسمه "القاموس في الطب". وابن رشد، وابن زهر.. كلهم كان لهم إسهامات عظيمة في مجال الطب العلاج.

قد كان الأطباء المسلون وحدهم في أوروبا هم المهرة في الطب حيث عالج أحد المسلمين المرضى بكل مهارة واحترافية، بينما قتل بعض المرضى عالم إفرنجي!

ومن المرجح أن تكون خبرات الصليبيين هي من أسست المستشفيات ، ولكن هذه المستشفيات كانت أدنى من المستشفيات العربيّة.

وظلت أوروبا في القرن الخامس والسادس عشر- على اعتماد الطب العربي؛ حيث كان أوائل الكتب المطبوعة تحتوي على جزء من كتاب الرازي المسلم.

تقول زيغريد هونكه " اتبع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي على طلاب الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر، فيقابلوا ما قد تلقنوه نظريا بما يشاهدونه بأم أعينهم حقا! وهكذا تخرجت طبقة من الاطباء الذين لم يشهد لهم العالم آنذاك مثيلا إلا في عصرنا الحديث".

أما تبني الأرقام العربيّة فلم يتم إلا في القرن الثالث عشر، وما قبل ذلك فقد كانت أوروبا تستخدم أرقام رومانية صعبة في جميع المجالات. كما يوجد كلمات فرنسية وألمانية وانجليزية مشتقة من الكلمة العربية "صفر" .

ومن الكتب التي رصدت أثر الثقافة الإسلامية على الغرب:

١. فضل الإسلام على الحضارة الغربيّة لمونتجمري وات ، حيث قال فيه عن فضل المسلمين على الغرب: "نحن الأوروبيين نجهل الفضل

الذي تدين به ثقافتنا للإسلام، وفي بعض الأحيان، نستخف بمدى التأثير الإسلامي في تراثنا وأهميته، وفي أحيان أخرى نتجاهله كليا، ولبناء علاقات جيدة مع العرب والمسلمين علينا الاعتراف بهذا الفضل كاملا، فإنكاره ليس إلا كبرياء زائف".

٢. شمس العرب تسطع على الغرب، للمؤلفة الغربية زيغريد هونكه التي ألفته إنصافًا لفضل العرب على الحضارة الغربية حديثًا، فقد قالت: "صممت على كتابة هذا المؤلف، وأردت أن أكرم العبقرية العربية وأتيح لمواطنيّ فرصة العودة إلى تكريمها، كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرمهم من سماعه طويلا تعصب ديني أعمى وجهل أحمق".

٣. حضارة العرب، للمستشرق الفرنسي "غوستاف لوبون" الذي أقر بفضل العرب المسلمون في كتابه الذي قال فيه ممتدحًا المسلمين : "وكلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علميا سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلا وأخلاقا، وإن التاريخ

لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الإبداع الفني".

٤. الأبطال، لتوماس كارليل، الذي اعترف فيه بهذه الحقيقة التاريخية إذ يقول: " لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن مُحَمَّداً خَداع مُزور، وآن لنا أن نُحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنيرة مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس. إن الله أخرج العرب بالإسلام من الظُلمات إلى النور، وأحيا به من العرب أمة هامدة..، فأرسل الله لهم نبياً وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة ودهور مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة".

٥. كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟ ، لمارك غراهام، ألفه محاولًا أن يبيّن بعض مساهمات المسلمين وتأثيرهم القوي على الغرب، قال في كتابه هذا: "على الرغم من أن معظم المشتغلين بفترة القرون الوسطى يعرفون المساهمات الإسلامية العظيمة في الحضارة الأوروبية، فإن القليل

منهم قد كتب عن هذا الموضوع. ومن الإنصاف أن أذكر أن بعض الباحثين من المستشرقين يحتقرون الإسلام وأتباعه من المسلمين لأسباب سياسية أو دينية، وهؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالحقد ينبغي أن يكونوا كالباحثين الجادين؛ إلى أولئك الذين يفتحون أياديهم للترحيب بإخوانهم وأخوتهم من المسلمين".

عندما أدرك العقل الأوروبي هذه القوة الإسلامية وامتدادها في البلاد شرقًا وغربًا نهجوا على سبيل المحاربة للإسلام والمسلمين ليوقفوا هذا المد الإسلامي السمح، وفي حين أن أوروبا قد ثارت على دينها المنغلق وكنيستها المنحرفة؛ إلا أنهم اعتبروا بخبث دفين "دين الإسلام" كدينهم المنبوذ وساروا يقذفونه بالنقض كما فعلوا مع دينهم وكنيستهم تمامًا!

ناهيك عن الاختلافات بين الدين الإسلامي ودينهم المسيحي الذي لعبه فيه رجال دينهم ليوافقوه على هواهم، والتي يُدرك صداها كل مُنصف طالب للحقيقة إلا أنه حقًا يهمنا الآن أن نتساءل: هل استبعد المجتمع الأوروبي الحديث الدين المسيحي من عوامل التأثير فيه ؟

هل تركت الكنيسة الدولة الغربية للعلمانية فعلًا ؟

تقول مجلة التايم في تعليقها على زيارة البابا جون بول الثاني لأمريكا عام ١٩٧٩م: "خلال عام واحد قفز الحبر الأعظم إلى بؤرة الضوء كزعيم متألق يتعطش العالم إليه".

وقالت نيوزويك: "إن الطريقة التي يثير بها الحماسة توحي وكأن الروح القدس قد ظهرت في أمريكا" .

وقد أعلن المذيع في التليفزيون الأمريكي : "إن من معجزات البابا أنه في سنة واحدة أسقط عيدي أمين وأحل حاكمًا مسيحيًا محله، وأسقط بوكاسا الحاكم الأفريقي المسيحي الذي تجرأ واعتنق الإسلام".

ويعلق على هذه الزيارة أحد شهودها وهو "أحمد الماوردي" وهو باكستاني علماني، كما جاء في تحقيق لمجلة الحوادث في ٢٧ /١٠ / ١٩٧٩م : "لا أصدق ما أراه، كنت أظن أنني أعيش في قلب الحضارة العلمانية والمادية وفق معقل الديمقراطية، حتى رأيتهم ينادون البابا

بصاحب القداسة، حتى محمد الذي يعتقد المسلمون أنه نبي لا يوصف بالقداسة، يعتقد المسلمون أن "العصمة المطلقة لله وحده. إن الغرب ما زال يعيش الامبراطور الإله".

وفي بولندا في مطلع عام ١٩٧٩م كان الشعب البولندي يهتف: "نريد الله في مدارسنا، نريد الله في منازلنا، الله هو ربنا".

هكذا كانت الهتافات لاستقبال البابا عندهم، ولم جاء البابا وقام في خطبته ومواعظه الدينية للشعب قال: "إن المسيح لا يقبل أن يكون الإنسان أداة إنتاج فقط.. فعلى العامل ورب العمل والدولة والكنيسة نفسها أن يتذكروا أنه لا يمكن فصل المسيح عن عمل الإنسان".

وفي ألمانيا يقول الأمير شكيب أرسلان: "هل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضة من نهضات أوربا جرت دون تربية دينية؟ أفلم يقل رئيس نظار ألمانيا في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات: إن ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي؟ ".

كما أن الكنائس في ألمانيا الاتحادية تعتبر أغنى كنائس العالم، والتعليم الديني إجباري في المدارس حتى سن الرابعة عشر، إذ يفرض على

الطالب البروتستانتي تعلم اللوثريّة، وعلى الطالب الكاثوليكي تعلم الكاثوليكية.

وفي بريطانيا الملك هو رئيس الكنيسة في الوقت نفسه، يقول الصحفي أحمد بهاء الدين (الأهرام ١٢ / ٦ / ١٩٨٧) : "ملكة إنجلترا هي رئيسة الإنجليزية ولكنها لا تأمر وتوجه ناقلة رأي الكنيسة إلى البرلمان المنتخب من الشعب"

ويوضح الدكتور يوسف الحسن في رسالته للدكتوراه أن الدين يهيمن في أمريكا على أخطر القرارات السياسية الدولية، وقد كانت أخطر معتقدات هذه المسيحية الصهيونية تلك النبوءة التوراتية عن عودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولتهم وملكهم فيها.

إن أقوى الأحزاب الأوروبية هي الأحزاب المسيحية، وأن أقوى الحركات السياسية الأمريكية هي الحركة الأصولية المسيحية (هكذا!) ثم تحظر في بلادنا الأحزاب الدينية. هذا ما ذهب إليه الدكتور محمد عصفور الذي يتساءل: أليس غريبًا أن الصهيونية التي أفلحت في انتزاع

إجماع العالم الغربي العلماني بإقامة إسرائيل على أساس ديني- هي أشد الدعوات العنصرية عداء لأية حركة سياسية ذات أساس ديني ؟!

ويجيب الدكتور محمد عصفور على هذا ويقول: " على الرغم من أن مبدأ الفصل بين الدولة والكنيسة مبدأ دستوري مقرر بالتعديل الدستوري الأمريكي الأول؛ إلا أن للكنيسة والدين هيمنتهما على الحياة الأمريكية في شتى مناحيها.. وارتكازا على هذا الواقع: أعلنت الحركة المسيحية الأصولية عن أهدافها السياسية بصراحة شديدة، ولذلك قال قاداتها: "إن حركتهم تعني الاستيلاء على الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسساتها" .

وإلى الآن تجد عملات التعامل عندهم (الدولار) تحمل على ظهرها عبارة (In God We Trust) التي معناها "نحن نثق في الله"!

بينما العلمانيون العرب يصرخون إذا سمعوا شعارًا واحدًا من شعارات الإسلام!

هل العلمانية هي طريق تحرير العلم من الدين ؟

زعم هذا الغرب وسار على دربهم جماعة من المسلمين العرب كطه حسين ومن يقف على آراءه وأفكاره، يقول طه حسين عن هذه النظرة التي يتبنونها في كتابه "من بعيد": "السبيل هو إقامة حكومة لا دينية تعتمد فكرة الوطنية، ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصف بها من منافع اقتصادية وسياسية خالصة قامت الآن في تكوين الدول وتدبير الشعوب"

هذا الفكر الذي هيمن على بعض مثقفينا حديثًا بدعوى التحرر والتمدن!

يمكننا أن نرد على هذه النظرة من خلال الأتي:

١. فساد القياس. فالكتاب المقدس المسيحي الذي قرر نظريات تخالف العلم والفكر.. لا يشبه ما قرره القرآن والإسلام من صفاء المضمون وخلوه من أي تناقض أو مخالفة للعقل السليم والعلم الصحيح.

٢. فساد القياس على الكتاب المقدس المسيحي من ناحية الإصلاح المجتمعي والاهتمام بالجوانب الحياتية (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدوليّة)، فالكتاب المقدس الذي قال "أَعْطُوا مَا

لِقَيْصَرَ- لِقَيْصَرَ- وَمَا لِلّهِ لِلّهِ" عندما اهتم بالجانب الروحي كثيرًا على حساب الجانب الدنيوي قد خالف القرآن الكريم والإسلام العظيم الذي يقرر على أتباعه أن تكون حياتهم كلها لله عز وجل، ولسان حالهم يقول ما وجههم إليه قرآنهم "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

٣. القرآن يأمر اتباعه بالاهتمام الدنيوي في شتى المجالات والتخصصات إنطلاقًا من المنهج الإسلامي العام الذي وضع وأرسى القواعد الكليّة في حياة المسلم ليسير عليها حتى يلقى الله.

أخيرًا، الدين الإسلامي الذي خلا من كل عداء مع العلم والفكر ليس على غرار الكنيسة ولا رجال الدين المسيحي؛ بل إنه قد جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، بل إن الإسلام يرفع من شأن العالم "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"

بل إن نبي الدين الإسلام أغلق الطريق على من يريدون أن يأتوا الإسلام بحجة رفضه للعلم حينما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقولته المدوية

:"مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِر".

هل عمر بن الخطاب شخصية لن تتكرر ؟

إن دعاة العلمانيّة قرروا أن الإنسان حين يحكم باسم الدين يقرر باجتهاده البشري ما يزعم أنه ناطق بلسان الوحي الإلهي، وأن تطبيق النظام الإسلامي سوف يخضع في النهاية لأهواء القائمين على التطبيق من البشر.

وهذه الرؤية خاطئة لعدة أمور :

أولًا: إن النص الإلهي إما أن يكون جليًا، كآية الجلد للزاني والزانية وآيات المواريث، فيهذا لا نزاع ولا جدال فيه بين المسلمين.

ثانيًا: وإما يكون النص الإلهي بحاجة إلى نوع من أنواع التفسير أو الاجتهاد، وهنا لا يأتي المرء بعقله ويجتهد إلا إذا أحكمته ضوابط علميّة ومعرفيّة أهمها أن يكون المجتهد من أهل العلم ذوي الخبرة اللغة وأسباب النزول وأحاديث النبي وكل علوم الشريعة المقررة.

ثالثًا: إن الزعم بأن الفهم البشري يحول بيننا وبين النص الإلهي زعم باطل، لأن قياسًا عليه فإنه يحول بيننا أيضًا وبين النصوص البشرية التي تحتاج إلى تفسير وبيان، وعندها فيستحيل علينا معرفة أفلاطون وأرسطو وكانت.. كما يستحيل علينا معرفة ما يقوله العلماني نفسه!

فهذا الحكم بالاستحالة خاطئ وغير صحيح.

رابعًا: إن الله عز وجل قد أخرج العرب من الظلمات التي كانوا فيها إلى النور والمعرفة والتقدم والحضارة بفضل المنهج القرآني الشامل لجميع نواحي الحياة، وفي ذلك يقول توماس كارليل: "لقد أخرج الله العرب بالإسلام، من الظلمات إلى النور، وأحيى به من العرب أمة هامدة، وأرضاها مدة. وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب، خاملة فقيرة، تجوب الفلاة، منذ بدءِ العالم، لا يُسمع لها صوتٌ، ولا تُحسُ منها

حركة! فأرسل الله لهم نبيًا، بكلمة من لدنْهُ، ورسالة من قِبَلِه. فإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقا، وَسِعَ نورُهُ الأنحاءَ، وعَمَّ ضوءُهُ الأرجاءَ، وعقد شعاعُهُ الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب، وما هو قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس وأشرقت دراسة الإسلام حقبًا عديدة ودهورًا مديدة بنور الحق والهدى على نصف المعمورة".

خامسًا: إن عصر الخلفاء الراشدين كان هو المثل الأعلى في تطبيق الفكرة الإسلامية وهناك عصور أخرى كانت عادلة، وهناك عصور ازدهار وعصور انحطاط، ومن الجهل والسفه أن يزعم أحد أن بعد عصر الخلفاء الراشدين كان الحكم الإسلامي كله استبدادًا وظلامًا، فهناك فرق بين مبدأ التطبيق وسوء التطبيق، فالذي يكرر "إن عمر بن الخطاب شخصية لن تعود" قد أخطأ بمقياس العلم والمنطق، فالواجب علينا عندما نريد أن نكون موضوعيين أن نؤمن بموضوعية السبب والنتيجة، وأنه كلما حصل السبب كان لا بد من النتيجة أن تحصل، وليس في الأمر خصوصية لأحد. وهكذا فإنه حيث يتوفر

السبب (وهو النظام الإسلامي) يظهر الإنسان المشابه لإنسان عصر الخلفاء الراشدين.

السؤال الآن هو: ما الذي يمكن أن يقدمه الإسلام لإنقاذ المستقبل ؟

إن المنظومة التي جاء بها الإسلام ورسمها للحياة هي منظومة الربط بين الإيمان والعلم والعمل، إنها طبيعة الإسلام الشاملة لكل الحياة التي جعلت من المسلمين حين تمسكوا بها وطبقوها في حياتهم سادة الأرض.

وقد أدرك هذه الحقيقة روجيه جارودي حينما قال: "إن الإسلام برفضه فصل الثنائية المزعومة بين السياسة والإيمان يمكنه مساعدة الغرب على تجاوز أزمته ، كذلك فإنه يمكن للإسلام بربطه كل شيء بالله .. في الملكية . والسلطة والمعرفة إلخ ... أن يكون خميرة تحرر

ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية المفروضة على الإنسان بحجة أطروحات مزيفة".

لكن لماذا كل هذا التقويض الذي خُطط للمسلمين من أكبر دول العالم التي لطالما تغنت بالحريات والمساواة؟

لقد وقفت أمريكا ومن خطا على نهجها ضد البلاد العربية جمعاء؛ فبين مستبد هنا ومغتصب هناك فإن أمريكا (أم العالم) ترعاه وتمده بالإمكانيات التي من خلالها يستمر في فساده للدول العربية والإسلامية.

لماذا لا يترك الإسلام والمسلون في الحياة ليصلحوا ما أفسدته العقول القاصرة، ويهذبوا ما شوهته المذاهب الهدامة في مسيرة الإنسان الكونية؟

يقول الشيخ القرضاوي عن أمة الإسلام حينما تركت وشأنها على نهجها القويم المتمثل في الإسلام العظيم: "كانت هذه الأمة توقن أن هذا المبدأ الذي اعتنقته والنظام الذي اتبعته ، هو سر قوتها، وينبوع سعادتها، وصانع حضارتها، ورافع ذكراها في العالمين، وأن كل نصر أحرزته، وكل

خير أدركته إنما هو بسبب التمسك بعراه، وكل ذل ركبها إنما هو بسبب التفريط في هذا المبدأ والبُعد عن تعاليمه".

إن المسلمون كما صنعوا قديمًا بالإسلام الحضارات وأقاموا بفكرهم العالِ أعظم نهج مثالي يهفو إليه الفؤاد ، هم قادرون اليوم على صياغة العالم في أحسن تقويم؛ لكن لماذا لا يتركه دعاة التقدم وعلى رأسهم أمريكا ويدعون تأييد من يسومه وأهله سوء العذاب؟

إن الإسلام يقدم للإنسانية الرُقي في شتى المجالات الحياتية المختلفة؛ لكن هل من مُجيب؟

الخاتمة

إن الله عز وجل قد أنشأ أجيالًا بالإسلام، وأنار الدنيا بضوء نهجه في الحياة، وأعطى بالإسلام غير المسلمين ما لم يعطوه على مر الزمان والسنين، ولنا في ثنايا التاريخ خير دليل وأعظم برهان على رُقي الإسلام والمسلمون حينما اندمجوا في كيان واحد في كل مكان وفي كل مجال ، فكما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم "قرآنًا يمشي- على الأرض" عادلًا، ناصرا للمظلومين والمهضومين، وراعيًا للعلم والمتعلمين، وإمامًا للناس في الدنيا والدين ..كان المسلمون على خطاه في نفس المنوال أرقى الناس وأحضرهم وأعلمهم، عندما تجسدت تعاليم الإسلام في شتى حياتهم وتوجهاتهم ، هذه التعاليم التي تُحارب اليوم ممن تفضّل الإسلام عليهم بكثير من ألوان الخيرات والإحسان!

إننا لا نأمل من هؤلاء خيرًا وهم الذين قالوا على لسان وزيرهم "تشارلز كلارك" في كلمة له في معهد هيرتيج في ٢٠٠٥/١٠/٦: "لا يمكن أن تكون هناك مفاوضات حول إعادة دولة الخلافة ولا مجال للنقاش حول تطبيق الشريعة الإسلامية"

ولكن كلنا أمل في شبابنا المسلم التوَّاق إلى رفع راية العدل في هذه الحياة التي خربها الظلم والاستبداد.

كلنا أمل في فتياتنا ونسائنا المسلمات اللواتي كن ولا يزلن منشأ للأبطال وقدوة للأمة في العزيمة القوية نحو نور القرآن والسير في درب خير الأنام.

إن التاريخ ليقف طويلًا أمام الجهود الجبارة التي أعطاها الإسلام للبشرية، وما قدمه للإنسان؛ لكونه إنسان بعيدًا عن دينه وجنسه.

فما أصدق التاريخ وما أكذب المدلسين!

محمد عبيد

المراجع

١. أوروبا والعالم الإسلامي.. التأثيرات الفكرية المتبادلة، بحوث في التيارات الفكرية. ثلاثة أجزاء، لمجموعة من علماء الأزهر، هم: د. أحمد عجيبة، د. يحي ربيع ، د. رضا الدقيقي، د. يحي هاشم ، د. محمد محمد حسين ، د. محمود حمدي زقزوق، د. محمد شامة.

٢. فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مونتجموري وات.

٣. شمس العرب تطل على الغرب، زيغريد هونكه.

٤. فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، عز الدين فراج.

٥. الأبطال، توماس كارليل.

٦. حضارة العرب لغوستاف لوبون.

٧. لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، شكيب أرسلان.

٨. الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	٦
مظاهر سيطرة الكنيسة على التعليم في العصور الوسطى	١٠
محاكم التفتيش	١٠
لماذا تعصبت الكنيسة ضد المخالفين؟	١٣
مراحل تحرر العقل الأوروبي من قيود الكنيسة	١٤
أسباب نقد الكنيسة	١٦
من الحركات التي نقدت الكنيسة	٢٢
أسباب الصراع بين العقل الأوروبي والكنيسة	٢٣
حركة الإصلاح البروتستانتي	٢٥
ثورة العقل الأوروبي على الدين المسيحي	٢٦

نشأة العلمانية ٢٧

حرص المستشرقين على علمنة الدولة المسلمة ٢٨

كيف أثر الإسلام على الغرب ٣١

التأثير الإسلامي للمستشرق مونتجموري وات ٣٥

من الكتب التي رصدت التأثير الإسلامي على الغرب ٤١

هل تركت الكنيسة الدولة للعلمانية فعلا؟ ٤٥

هل العلمانية هي طريق تحرير العلم من الدين ؟ ٤٩

هل عمر بن الخطاب شخصية لن تتكرر ؟ ٥١

ما الذي يمكن أن يقدمه الإسلام لإنقاذ المستقبل؟ ٥٤

الخاتمة ٥٧

نبذة عن الكاتب

- الاسم/ محمد أحمد عبيد.
- يعيش في مصر.
- المؤهل/ ليسانس في أصول الدين والدعوة الإسلامية من جامعة الأزهر الشريف، قسم العقيدة والفلسفة - عام ٢٠١٨م .
- كاتب، وله العديد من المقالات والأبحاث المنتشرة على الإنترنت (في الفكر والدين والفلسفة).
- حصل على عدة دورات في العلوم الإسلامية.
- حساباته:

https://www.facebook.com/muhammedebeedelazhary

https://mobile.twitter.com/Muhammedebeed

mohamed.ebeed572@gmail.com